محاضرة

العرب بين مخاطر السقوط وإمكانات النهوض*

أ. محمد الميلى**

فكرت طويلًا فى مسألة أختارها لتكون موضوع حديثى إليكم، فالأخ عبد الباسط عبد الماجد وزير التربية والتعليم العام فى السودان، عندما اقترح عليَّ أن ألقى محاضرة بمناسبة زيارتى للخرطوم (من ٢٥ إلى ٢٧ فبراير ٢٠٠٠) ترك إلى حرية اختيار الموضوع.

تبادر إلى ذهنى أن تكون قضية التربية والتعليم هى الأولى بأن تبحث فى أى لقاء بأى بلد عربى؛ أليس مستقبل الأجيال القادمة، مشرقًا كان أم مظلما، متوقفا على المنظومة التربوية ؟ أليست الأزمات التى يعانى منها هذا البلد أو ذاك فى العالم العربى، قد تسبب فيها، جزئيا على الأقل، فشل منظومات التربية والتكوين؟ ألم يفسر بعض المؤرخين هزيمة نابليون الثالث فى ١٨٧٠م، أمام بروسيا، بتفوق المدرسة الألمانية ؟ تلك الهزيمة التى خسرت معها فرنسا الألزاس-لورين، ولم تستردها إلا عام ١٩١٨م، بحسب شروط وإملاءات غرست بذور حرب أخرى جرت على العالم ويلات الحرب العالمية الثانية.

---

* ألقيت هذه المحاضرة فى قاعة الشارقة بجامعة الخرطوم بتاريخ ٢٠٠٠/٢/٢٧ .

** مدير عام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

أم هل أختار الثقافة ؟ فقد أصبحت المشكلات المتصلة بها تمثل أبرز التحديات التى تواجه عوالمنا فى هذا القرن الجديد ، خصوصًا أن التحديات ذات الطابع الثقافى بلغت حدًّا من العمق والتعقيد والتشعب أصابت به بعض ثوابتنا ، وزرعت بذور الشك فى مقدرتنا ، وهزت عددًا من ألوان اليقين والاعتزاز بتاريخنا .

أم هل يكون موضوع العلاقات العربية - العربية هو الأجدر بالنقاش فى زمن أصبح فيه استحكام العداوة بين الأشقاء سمة من سمات عصر شهد من التراشق بين الإخوان ، ومن التطاحن ، ما لم يعرفه زمن عربى ، منذ حرب داحس والغبراء ؟

ثم وجدت أنه أيا كان الموضوع الذى يقع عليه اختيارى ، تربويا أو ثقافيا أو سياسيًا ، فإنه محكوم عليه بأن يتعرض للأزمة أو الأزمات التى يعانى منها العرب ، والتى تطبع أهم مظاهر حياتهم .

قرأت فى الأسبوع الماضى مقالًا لمراسل صحيفة غربية أرسله من إيران ، استخلص فيه من كلام سائق تاكسى ، أن هناك من أبناء طهران من يتأسف على عهد الشاه.

ولست أشك أن ما استخلصه المراسل الغربى يعبر عن أمنية فى نفسه هو ، أسقطها على شخص من إيران بدر عنه تعليق لم يفهمه أو لم يضعه فى سياقه ، فبالغ فى تضخيم مدلوله ، خصوصًا أننا نعرف أن إعادة الاعتبار للاستعمار ، مسعى قد شرع فيه الغرب الأوربى ، منذ نحو عشرين سنة .

وواضح أن إعادة الاعتبار للاستعمار تستلزم فيما تستلزمه من أهداف ، إدانة

الحركات الوطنية التى حاربت الاستعمار ، وتزيين صورة الإدارات الاستعمارية ، على نحو يجعل التحسر على عهود الاستعمار يبدو طبيعيًا .

والواقع أن التحسر على الزمن الاستعمارى ، فى طريقه لأن يصبح ظاهرة فى أكثر من بلد عربى وإفريقى ، بل إن هناك من المثقفين الأفارقة من دعا إلى مطالبة الدول الاستعمارية بأن تستعمر إفريقيا من جديد ، حتى تخرجها من محنتها.

ورغم أن مثل هذه الدعوة تعد شاذة لا يقاس عليها ، فإن تعقد الأزمات التى تعانى منها بلدان العالم العربى والإفريقى قد جعل بعضًا من شباب اليوم يتساءل لماذا كانت إذن كل تلك التضحيات الجسام التى بذلها هذا الشعب أو ذاك ، إذا كانت النتيجة هى ما يعيشه اليوم شباب حائر ، لا يجد مأوى لائقًا ، ويواجه المحال من أجل الحصول على عمل يجعله فى مأمن من السقوط تحت خط الجوع .

لماذا كانت كل تلك التضحيات إذا كانت هناك شرائح واسعة من شباب اليوم ترى أن أعز أحلامها هو الحصول على تأشيرة يلتحق بها ببلاد الغرب ، أو العثور على وسيلة يبلغ بها شواطئ أوربا ، ولو من خلال مغامرة لا تخلو من مخاطر .

وعندما يعجزه الأمر ينصرف إلى الحلم بعالم آخر يزينه له محترفون للسياسة من نوع جديد ، يستعملون شعارات تلهب خيالًا بريئًا دون أن تقدم له مشروعًا للنقاش قابلًا للتطبيق ، فتتعزز لديه روح التواكل ، فيهاجر إلى الغيب ، وقد عجز عن مغادرة الوطن ، وفاته موسم الهجرة إلى الشمال .

ورغم اختلاف الظروف بين بلد وآخر ، فهناك عدد من القواسم المشتركة

بين البلدان العربية ، تفسر أوضاع المعاناة الحالية .

وإذا كان يصعب استعراض كل تلك القواسم ، فإنه يمكن تلخيص بعضها فيما يمكن تسميته بتراجع اليقين ، واستفحال الشكلية من جهة ، وعدم إتقان القراءة المتمعنة فى خريطة الزمن ، إزاء إتقان القراءة فى خارطة الجغرافيا والتاريخ الحضارى من جهة أخرى .

كثيرًا ما يؤكد الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل فى كتاباته عن أزمة من أزمات العرب ، أهمية القراءة فى الجغرافيا ؛ على أساس أنه ، والتعبير للأستاذ هيكل ، « ليس هناك كيان سياسى يمكن النظر فى أموره بعيدًا عن محيطه ، أو يمكن البحث فى أمته بعيدًا عن جواره ، أو يمكن التطلع إلى مستقبله خارج الرؤية الشاملة لعناصر وموازين القوة على الحدود والتخوم وما وراءها من طموحات وتوازنات » . وقد رأيت أن أضيف إلى ما قاله الأستاذ الكبير ، ضرورة إتقان القراءة للعصر والزمن والساعة .

فإتقان القراءة فى الزمن ، زماننا وزمانهم ، زمان المتخلفين وزمان المتقدمين، ضرورى إذا أردنا أن نتجنب ما عرفناه من هزائم ونكسات ، سواء فى زمن المد الكاسح للاستعمار التقليدى ، أو فى عصر الاستعمار الجديد ، حيث الحروب الخفية التى تحطم كثيرًا من مكاسبنا ، وتقضى - وهذا هو الأخطر - على أحلامنا والمشروعات المؤسسة لمستقبلنا .

إن الهزائم التى منيت بها الجيوش والمقاومات الوطنية فى مواجهتها لعساكر الاحتلال ، ترجع إلى أن عقول أسلافنا قد توقفت عن التفكير والاجتهاد ، وتصورت أنه يمكنها أن تنتصر بأدوات صنعت لزمان سبق .

فى بدايات الاحتلال الفرنسى ، منذ أكثر من قرن ونصف القرن ، نودى للجهاد فى إحدى القبائل المعروفة بالشجاعة وإتقان القنص ، هبت القبيلة وعلى رأسها شيخها بعد أن أخرجوا بنادقهم لمحاربة المحتلين ، وما إن بدأت المعركة حتى وجد المجاهدون أنفسهم يتعرضون لنيران مدفعية لم يكن لهم بها عهد . التفت شيخ القبيلة يمينًا وشمالًا ، ثم ألقى ببندقيته أرضًا قائلًا : هذا جهاد الآية ... واستعمل كلمة مستهجنة ... ثم قال : هؤلاء عفاريت قادمون من كوكب آخر .

ذلك لأنه وجد نفسه عاجزًا عن مواجهة قوة تقدمت عليه تقانة ؛ أى سبقته زمانًا . هذا التفسير لهزائم الأمس يصلح هو نفسه تفسيرًا للانتصارات التى حققها ، بعد ذلك ، المستضعفون ضد المستعمرين ، فقد تحققت بفعل تفطن طلائع المستنيرين لأهمية اللحاق بالزمن والعصر ، قبل الشروع فى مواجهة المستعمر .

سمعت فى إحدى الإذاعات منذ بضعة أيام ، أن حكمًا صدر فى حق صحافى أو كاتب ، يقضى بمنعه من الكتابة مدى الحياة ؛ هذا بالضبط هو نوع الأحكام الصادرة عمن يعيشون خارج الزمن ، ماذا يعنى ذلك فى زمان الساتيلايت ؟ وماذا عسى أن يكون جرم هذا الكاتب أو الصحفى ؟ مع أننا نعرف أن النبى عليه الصلاة والسلام ، لم يعاقب عبد الله بن أُبىّ عندما توعد هذا رسول اللّه قائلًا : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ ؛ لأن خاتم الأنبياء ﷺ كان يعرف أن الزمان زمانه وليس زمن عبد اللّه بن أُبىّ .

إن مطلب أن يعيش الإنسان زمنه وأن يعيش عصره ، يعنى أن يعرف تاريخه ويستخلص العبرة من دروس ماضيه ، حتى يستطيع أن يواصل المسيرة التى تمكنه

من امتلاك مستقبله ، معتمدًا على دعامتين تحققان له التوازن فى سيره : التراث أى البعد العربى – الإسلامى ، وتمثل العصر علومه وتقاناته وفنونه .

ولا شك أن استعراض المشروعات النهضوية التى نجحت فى تاريخنا المعاصر ، تؤكد لنا أن المفتاح الأساسى لنجاحها هو مزاوجتها بين أصالتها ؛ شخصيتها العربية الإسلامية ، وفهمها للحداثة ولطبيعة العصر وزمانه . على أن الدراسة المتمعنة للتجارب التى نجحت فى الماضى القريب تكشف أيضًا عن شرط آخر من شروط النجاح فى مواجهة العدو الخارجى ، وهو ضرورة كسب المعركة ضد العدو الداخلى ؛ أى ضد مواطن الضعف فى ذواتنا ، وجوانب القصور فى تفكيرنا ، وأمكنة الخلل فى توازناتنا .

لتوضيح المقصود من ذلك ، أسوق مثالاً من الجزائر فى نهاية القرن التاسع عشر ، وبدايات القرن العشرين . بدت الجزائر وكأنها قد محيت محوًا من الوجود ، بل كان هناك من العرب من عدها أندلسًا ثانية ضاعت من الإسلام والعروبة إلى الأبد .

ذلك لأن الاستعمار بعد أن انتصر عسكريًا ، سعى إلى تكريس سيطرته بأن يمحق الشخصية المعنوية للشعب عن طريق سلسلة من الإجراءات ، ليس هنا مجال حصرها ، ولكن يمكن تلخيصها فيما يأتى :

– إخضاع المؤسسات الدينية للإدارة الفرنسية ، فى حين أن هذه المؤسسات كانت تتمتع بنوع من التسيير الذاتى أثناء العهد العثمانى ؛ فلم يكن « المخزن » يفرض أية سيطرة على المعاهد التعليمية أو المدارس القرآنية التى كانت بمثابة دور حضانة ومدارس ابتدائية ، أما الأوقاف فقد كانت تابعة لإدارة الجهة التى

خصص الوقف لها : مسجدًا كان أو معهدًا إلخ ..

- استتبع ذلك استحواذ الإدارة الاستعمارية على جميع الأوقاف الإسلامية ؛ ونتيجة لذلك توقف كثير من معاهد التعليم ، وأصبحت الإدارة الفرنسية هى التى تعين ، بصفة مباشرة ، كلا من المفتى والإمام ، إلى آخر المناصب الدينية الصرفة ، بالإضافة إلى تعيين القاضى والباشعدل والعدل ... إلخ .

- وتجدر الإشارة إلى أن سلطات الاحتلال بادرت ، فى أول عهدها بالسيطرة على العاصمة ، إلى الاستيلاء على أهم مساجدها الجامعة ، وهو جامع « كيتشاوة » الذى حولته إلى كاتدرائية ، وظل محتفظًا بتلك الصفة، إلى أن استقلت الجزائر ، وعاد إلى صفته الأولى مسجدًا جامعًا للمسلمين ، حيث أم صلاة الجمعة فيه ، بعد استرداده ، الشيخ محمد البشير الإبراهيمى .

وحيث إن الطرق الصوفية أبلت البلاء الحسن فى مقاومة الاستعمار ، فقد تصورت السلطات الفرنسية أن الدين الإسلامى هو الذى يقف حجر عثرة أمام بسط نفوذها ، فلم تتفطن إلى ارتباط المقاومة بالأرض ، فى الوقت نفسه الذى تستند فيه إلى الدين بطبيعة الحال ؛ إذ لم تكن توجد بالجزائر أقليات دينية .

لذلك وضعت مخططًا ذكيًا ذا شقين :

- شق أول يتمثل فى استمالة بعض أهم الزوايا والتحالف معها ، بعد إقناع مشائخها أن الاستعمار صار أمرًا واقعًا ، وهو بمثابة « القدر » وأنه لا راد لقضاء الله وقدره .

- شق ثان ، مرتبط بالأول ، مثلما هو مرتبط بالإجراءات التى سبقته ، وهو تجفيف منابع الثقافة العربية الإسلامية .

فإغلاق المعاهد التعليمية المستقلة بعد حجب موارد الأوقاف عنها ، وحصر التعليم فى الزوايا الطرقية المرخص بها ، بعد قطع أى اتصال لها مع منابع الثقافة العربية الإسلامية الأخرى ، فى مشرق العالم العربى أو مغربه ، جعل التعليم مقصورًا على تحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم مناقب الأولياء وكراماتهم ، إلى جانب مبادئ يسيرة فى النحو والصرف واللغة ، وأبواب من الفقه ، محصورة فى كتب التقليد المذهبى الجامد .

ومن شأن ذلك أن يؤدى إلى تقليص مجالات الثقافة العربية الإسلامية ، وانخفاض مستوياتها .

ونظرًا إلى أن موسم الحج يمثل مناسبة منتظمة للاتصال بتيارات الفكر العربى الإسلامى ، فقد أخضعت الحج لرقابة شديدة ، وحرصت على توجيه عدد من عيونها لمرافقة الحجيج الذين يرخص لهم بأداء تلك الفريضة الدينية .

وفى موازاة تلك الإجراءات ، عمدت السلطات الاستعمارية إلى وضع سياسة تقوم على دعامتين أساسيتين :

- نشر اللغة الفرنسية .

- التبشير بالدين المسيحى .

ففيما يتعلق بالدعامة الأولى ، جعلت التعليم الفرنسى إجباريًا . وبرغم بعض إغراءات ، تتمثل فى توزيع وجبات أكل على الذين يترددون على المدرسة

الفرنسية ، فلم يحدث أى إقبال على التعليم الفرنسى ؛ ذلك لأن مقاومة الشعب لذلك التعليم ، لم تكن تتمثل فى عد لغته لغة كفار فقط ، ولكن أيضًا ؛ لأن الخيال الشعبى أشاع أن الطفل الذى يذهب إلى المدرسة الفرنسية ، يجبر على تقبيل الصليب ، ويقدم له مصحف قرآن حتى يبصق عليه ، تحت الضغوط .

على أن استقرار الاستعمار جعل التعليم الفرنسى يبدو أهون الشرين ، فهو أفضل من الأمية ، ومع ذلك لم يحدث الإقبال على التعليم إلا فى مرحلة لاحقة .

ويروى بعض الخريجين الجزائريين (وقد أصبح محاميًا) أنه كان يشتغل فى الحرث ورعى المواشى لمساعدة والده ، وعند رجوعه من الحقل ذات يوم ، قال أبوه لأمه : نظفى الطفل وغيرى ثيابه حتى آخذه إلى المدرسة الفرنسية ، فقالت الأم : خذه كما هو فعسى أن يرفضوا تسجيله .

ويروى آخر أن أباه ، وقد علم أن التلاميذ يلقنون فى درس التاريخ أن أجدادهم من بلاد الغال ، مثلهم فى ذلك مثل كل الفرنسيين ، قال لابنه : إياك أن تحفظ هذا الدرس ، قال له ابنه : وإذا طلب منى المعلم ذلك ، وكان النجاح فى الامتحان متوقفًا على حفظه ؟ قال له والده ولو . وصادف فعلًا أن سئل الطفل عن المسألة فاحتار : هل يمتثل لأبيه ويرسب فى الامتحان ، أو يجيب على حسب حفظه للدرس وينجح ؟ وأمام تمكن الحيرة منه أجهش بالبكاء ولم يجب ، ولذلك ظلت معظم المدارس خاوية .

على أن هذه المرحلة لم تستمر طويلًا ، فما لبث الناس وقد اقتنعوا بأهمية التعليم ، أن أقبلوا على المدرسة الفرنسية التى أصبحت مقاعدها تضيق بطالبى

الالتحاق بها .

أما بالنسبة للدعامة الثانية وهى التبشير بالمسيحية ، والسعى إلى تنصير الجزائريين ، فقد تكفل بها الكاردينال « لافيجرى » الذى أسس لهذا الغرض « جمعية الآباء البيض » . وتقوم خطة التنصير على اعتقاد مزدوج ، وهو أن الجزائريين كانوا فى العهد الرومانى والعهد البيزنطى نصرانيين ، هذا من جهة ، وأن إسلامهم إسلام سطحى من جهة أخرى ، ومن ثم فمن السهل تنصيرهم ، بل إن بعض المؤرخين كان يرى أن الفتح الإسلامى ، كان قد اقتطع هذا الجزء (الجزائر) من أوربا ، وألحقه تعسفًا بالمشرق .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المحاولة ركزت بصفة خاصة على المناطق الناطقة بالأمازيغية ، وذلك لأن المنظرين الذين وضعوا هذا المشروع ، كانوا يتصورون ، كما قلنا ، أن الإسلام هو وحده الذى يغذى المقاومة ، وغفلوا عن عنصر التعلق بالأرض ، ومن ثم تصوروا أن تنصير المناطق البربرية ، يؤدى إلى تفتيت «الكتلة» التى وحّدها الإسلام والتى تتركب من عنصرى العرب والبربر، وقالوا : إن تفتيت هذه الكتلة سوف يفتح الباب أمام حضارتنا وعرقنا ليسيطرا على هذا البلد .

بل إن بعضًا من الذين سهروا على تنفيذ هذا المشروع قالوا : يجب أن نجعل من مناطق البربر « لبنان إفريقيا » حتى يصير سكانها هم «موارنة المستقبل » .

لكن المشروع منى بالفشل ، ولم يستطع الكاردينال « لافيجرى » أن يفهم هذا الفشل الذى بدا له غير معقول ، إلا أن تكون الإدارة الاستعمارية قد حاربته ، ولذلك اتهم السلطات الفرنسية بأنها هى التى عرقلت المشروع، وزعم أنها كانت تشجع تعليم اللغة العربية ، ونشر الديانة الإسلامية ، ثم تصور أن

إيجاد تنظيم يعتمد على « الأخوات الراهبات » قد يساعد على تحقيق ما عجزت عن تحقيقه جمعية « الآباء البيض » ، لذلك ظهرت جمعية «الأخوات البيض» التى توجهت إلى العناية بالأسرة ، فكن يقدمن المساعدات المالية والعينية والخدمات الطبية إلى الأسر الجزائرية ، وكن يدخلن إلى البيوت دون أى مانع ما دمن نساء .

ومن الحكايات التى شاعت فى بلاد القبائل ، وظل السكان يرددونها إلى وقت قريب ، ما يروى أن واحدة من الأخوات ، وقد تصورت أن ربة البيت الجزائرية قد اطمأنت إليها وأصبحت تستقبلها بالترحاب كلما زارتها ، سألتها ذات يوم :

- ما رأيك فينا ؟..

- والله أنتن على خلق عظيم ، ويا ليت كل الفرنسيين مثلكن .

- لا ينقصنا أى شيء فى نظرك ؟

قالت لها الجزائرية : شيء واحد فقط ، وهو أن تدخلن فى الإسلام !

وبرغم الجهود الضخمة التى بذلت فى إطار الدعامتين المذكورتين ، فإنها لم تنجح إلا فى تنصير عدد محدود من الجزائريين يمكن عدهم على أصابع اليدين .

على أن القضاء على جميع المقاومات المسلحة ، وانهزام كل التمردات، قد أعطى انطباعًا ، مع نهاية القرن التاسع عشر ، بأن الاستعمار قد استقر بصفة نهائية .

ولم تحل سنة ١٩٣٠م، حتى تأكدت باريس أن الجزائر أصبحت فرنسية إلى

الأبد ، لذلك نظمت احتفالات ضخمة بمناسبة مرور قرن على الاحتلال . وبهذه المناسبة صدرت عدة كتب ودراسات عن الاستعمار بالجزائر وفى فرنسا ، وتم التذكير بجنرالات الاحتلال الفرنسى وقادته ، كما ظهرت الإشادة بشخصيات نصرانية أمثال « جان دارك » ولويس التاسع الملقب بـ « القديس لويس » الذى كان قد شارك فى الحروب الصليبية .

لم يتمكن الاستعمار من تحقيق ذلك الانتصار المعنوى إلا بالاختراق الذى نجح فيه عبر مواطن الضعف الداخلى . وهو بعد أن نجح فى تدجين البعض من أهم الزوايا ، كما ذكرنا ، سخرها لخدمته ، فقد راح دعاتها يطلبون من الجزائريين أن يمتثلوا لأوامر الإدارة الفرنسية ، بناءً على تأويل محرف لآية : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ .

وفى الوقت نفسه عمموا شعارا يقول : « وافق ، أو نافق ، أو فارق » ؛ وافق الاستعمار ، أو تظاهر على الأقل بموافقته ، وإن لم يكن لا هذا ولا ذاك ، فلتغادر البلاد .

بعد أقل من مرور سنة على الاحتفالات الضخمة بمئوية الاحتلال الفرنسى ، تأسست فى مايو ١٩٣١م ، (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ، فظهر معها الإصلاح الدينى فى شكل حركة منظمة ، بعد أن كان فكرة يحملها أفراده ، لا تربط بينهم علاقات متينة ، باستثناء ما كان يربط من علاقة صداقة بين الشيخ ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمى ، والشيخ ابن باديس وتلميذه مبارك الميلى . وكان هذا التنظيم إيذانًا بدخول فكرة الإصلاح فى طور جديد ، عبر مسعى إعادة الاهتمام بالاجتهاد ، والدعوة إلى الإبداع والتجديد .

ولم تتصد هذه الحركة للاستعمار صراحة إلا بعد أن واجهت نقاط الضعف الداخلى . وقد استعملت لبلوغ هدفها نوعًا من الخدعة المشروعة فى الحرب ؛ فأعلنت أن نشاطها دينى بحت ، ليست له أدنى علاقة بالسياسة ؛ وذلك حتى تتمكن من الحصول على الترخيص القانونى الذى يسمح لها بأن تنشط فى معالجة الأمراض الداخلية . ولكى تعمل على تنويم الحذر الفرنسى ، أشركت عند التأسيس بعضًا من ممثلى الزوايا الطرقية (وإن كانت هذه المشاركة لم تستمر ؛ إذ انشق الطرقيون وأسسوا تنظيمًا آخر بعد مرور سنة على التأسيس) .

راح دعاة علماء الإصلاح الدينى يعملون على تنبيه الناس كى يفيقوا تدريجيًا ويعيشوا عصرهم . وشيئًا فشيئًا بدأت علامات الحياة تدب ، وراح الناس ينبعثون تدريجيًا من غيبوبة تعاونت هياكل الطرقية وقوانين الاستعمار على إطالة أمدها ، بما كانت تعمد إليه من دفع الناس إلى اتجاه الموت والاستسلام ؛ فقد كانت العقول مخدرة ، وكان شيخ الطريقة أو من يمثله هو الذى يفكر نيابة عن الناس ، وهو الذى يمنحهم صكوك الدخول إلى الجنة . وكان الاعتقاد السائد أن تلاوة « الورد » المأخوذ عن شيخ الطريق ، ينيل صاحبه أضعاف أضعاف الثواب الذى يمكن أن يكسبه من تلاوة القرآن الكريم .

وقد بلغ من تقديس الناس لهم ، أنهم كانوا يقدسون كل ما ينتمى إليهم من أضرحة أو حيوانات . وفعلًا فقد حدث أن هامت كلاب مزرعة تابعة لزاوية أحد مشائخ الطرق ، فى شمال قسنطينة ، بداية الثلاثينيات من القرن الماضى ، فكان الناس يستقبلونها بالترحيب ، ويذبحون لها الذبائح ، وإن كانوا يؤذونها عندما ينتزعون شعرها للتبرك به .

وقد أدى تقديس شيخ الطريقة ، إلى أن بعضهم لم يعد يخشى من ممارسة المحرمات أمام مريديه : فهو إذا شرب الخمر ، فالمريد متيقن أن الخمر يتحول فى فمه إلى عسل ، وإذا حدث أن شاهد المريد شيخه يزنى بامرأة ، فهو متيقن أن ذلك منظر خيالى يصوره الشيطان له حتى يكفر بالشيخ ويدخل النار .

إن الوضع الذى أوجده تحالف الاستعمار مع بعض من أهم الزوايا ، أدى إلى اختلال التوازن النفسى والعقائدى لدى الجماهير ، فى الوقت نفسه الذى أصبح أى نشاط سياسى تدخلًا فيما لا يعنى ، بل محرمًا . فكان لزامًا على رجال الإصلاح الدينى أن يقوموا بأنشطة مكثفة ، تحملهم إلى كل جهات الوطن ، حتى يتصلوا بالناس ويخاطبوهم بلغة سهلة مفهومة ، تنتشلهم من السبات حتى يفيقوا . وفعلًا فما لبث أن أصبح شعار «فاقوا» هو الذى ترفعه الجماهير فى وجه دعاة الطرقية . وهكذا راح المصلحون يدربون الناس على أن يقفوا على أرجلهم ، ويحكموا عقلهم فيما يرون وما يسمعون ، حتى لا ينطبق عليهم المثل الذى ضربه مؤلف «كليلة ودمنة» فى حكاية الرجل الذى صدق بما سمع وكذب بما رأى . وما هى إلا بضع سنوات ، حتى أفاق الناس من عميق السبات ، وصار هناك جدل ونقاش بين مركز تمثله الإدارة الاستعمارية وحلفاؤها من جهة ، ومركز آخر يمثله رجال الإصلاح الدينى من جهة أخرى .

فاستأنفت الحياة مسيرتها ، واسترجع رجل الشارع ثقته فى نفسه ، ونبذ الاتكال على شيخ الطريقة ، وأصبح يناقش ويجادل ويتخلى عن مبدأ «سلم تسلم» .

ومن العادات التى كانت شائعة فى بعض جهات الجزائر أن بعض الذين

يدعون « الكرامات » يستقبلون أصحاب الحاجات فى الأسواق الأسبوعية ، حتى يحققوا لهم مطالبهم . أخبر أحد المريدين صديقًا له بأنه ذاهب إلى سوق الجمعة ، ليقضى الشيخ حاجة له . وجادله صديقه فى ذلك، فقال له : إن لم تصدقنى تعال معى ، ذهب الصديق الذى يشك فى الكرامات ، واستقبله الولى يوم السوق حتى يمنحه ثروة ، قال «الولى» للرجل : انشر جناح برنوسك . فنشر الرجل جناح برنوسه . آنذاك قال له «الولى» خذ ، وأشار بيده فى اتجاه جناح البرنوس كمن يوزع عطاء ، ثم قال له : لملم جناح برنوسك ، فقد وهبتك ما تريده . لملم الرجل جناح برنوسه ، واستعد لمغادرة خلوة « الولى » . قال له هذا ، إلى أين ؟ كيف تغادر وأنت لم تدفع الجعالة ؟ (المستحق عليك) ، فنشر الرجل برنوسه قائلًا : خذ مما وهبتنى ، وانتشر الخبر فى السوق وفقد « الولى » المزعوم ثقة الناس فيه وإيمانهم به .

كانت أنشطة علماء الإصلاح متعددة ، فقد أقاموا « نوداى » ، هى عبارة عن مقهى يرتاده الناس ، مخصصة لإلقاء محاضرات أسبوعية ، بعد صلاة عصر يوم الأحد ، حتى يتمكن من سماعها الشباب الذين لا يترددون على المساجد وبخاصة الموظفون المفرنسون .

وقد حدث أن استنهضت تلك المحاضرات فئة الشباب ، الذى أصبح يحرص ، بعد أن اقتنع بالأفكار المطروحة من « النادى » ، على حضور دروس المسجد ، التى تقام عادة بعد صلاة المغرب وقبل صلاة العشاء ، علمًا بأن الدروس المسجدية يحضرها عادة الكهول والشيوخ .

وتجدر الإشارة إلى أن المساجد التى بناها الإصلاحيون كانت تشتمل على

قسم مخصص للنساء. وهناك من رجال الإصلاح من خص النساء بدروس موجهة لهن، يستمعن إليها من وراء ستار (حجاب) . أما الناشئة فقد أقيمت لهم مدارس ابتدائية منظمة على طريقة المدارس الفرنسية. وأسفرت هذه الأنشطة فى اتجاه الجميع، رجالًا ونساء، أطفالًا وشبابًا وشيوخًا ، عن أن تسترجع الحياة حقها؛ فتمزقت حجب التضليل والضلالة، واندفع الناس يقدحون أفكارهم حتى يفهموا ما يجرى حولهم، وراحوا يبحثون داخل أنفسهم عما لديهم من طموح ، يدفع إلى الحركة ، وينقض الكسل وينبذ التواكل، وبذلك خرجوا عمليًا من سبات عقلى كان يشدهم إلى عصور التخلف، ودخلوا العصر، وأصبحوا يعيشون بحسب ساعته ووتيرته.

وهكذا تجرأ الشعب على مناقشة ما كان يعد مسلمات غير قابلة للتشكيك، سواء أكانت متصلة بمشائخ الطرق أم الاستعمار. وذلك يعنى أن الشعب تدرب على استرجاع الكرامة التى ضاعت، والأنفة التى مرغت فى التراب؛ فتأكدت الهوية عبر ثوابت العقيدة، والتاريخ الحضارى، واللغة العربية، والتعلق بالأرض. ولا شك أن تأكيد الهوية، بمقوماتها كلها شرط أساسى لاستعادة الثقة بالنفس، والتحرك الفاعل، ويتطلب بعث الحياة من ذاكرة التاريخ، وشحذ التفكير فى المستقبل اعتمادًا على أدوات العصر.

وقد أدركت جمعية العلماء أهمية التكوين لأجيال الغد، فأقامت كما أشرنا لذلك، مدارس حرة فى مختلف البلاد، لتعليم اللغة العربية، والتعريف بالتاريخ الوطنى والحضارة العربية - الإسلامية، مع التعريف بالتاريخ السابق على الإسلام.

وفى الوقت نفسه الذى كانت تشن فيه الحرب على تقديس الأضرحة والأولياء ، كانت (جمعية العلماء) تدعو إلى الإفادة من الثقافة الفرنسية ، عبر تعلم لغتها ، وتمثل النظم الحديثة ، وإتقان التخصصات العلمية والاقتصادية .

فقد نشرت « الشهاب » التى كان يديرها الشيخ عبد الحميد بن باديس مقالاً فى مارس ١٩٣١م يهاجم البورجوازية الجزائرية لتقصيرها فى النهوض بدورها الاقتصادى والثقافى ؛ فهو يقول : « إن إلمامة وجيزة بمسلك أسرنا الثرية ، تبين مقدار زهد أبنائها فى العلم والمعرفة ، ومقدار ما نجم عن ذلك من الآثار السيئة » . وفى يوليه ١٩٣١م نشر مقالاً بعنوان : « إلى متى ونحن راضون بالموجود وفى غنى عن علوم الحياة» . وفى هذا المقال يدعو الشعب إلى الاعتماد على نفسه ، وأن لا ينتظر أى شيء من الإدارة الفرنسية ، ويلح على ضرورة الإفادة من علوم الغرب « التى نحن خلو منها برغم احتكاكنا بالغرب » . ويسجل فى هذا العدد مدى استعداد الشعب للنهل من حياض العلم الحديث ، ويدعو إلى توفير الفرص ، بوساطة مجهودات شعبية ، من أجل توجيه « بعثة من التلاميذ النجباء كل سنة إلى جامعات فرنسا العلمية والصناعية » ، وبذلك تحددت جبهة جديدة لمواجهة الاستعمار بمنطق الثقافة التى يدعى أنه يمثلها ؛ وهى ثقافة الثورة الفرنسية ، بمبادئها التى تتمحور حول الحرية والأخوة والمساواة .

وقد اعترف أكثر من ملاحظ فرنسى بمدى التأثير الذى أحدثته (جمعية العلماء) فى سنوات قليلة ، سواء فى المدن أو الأرياف ، فقد كتب (ديسبارميت) Desparmet عام ١٩٣٣م ، فى النشرة التى تصدر عن لجنة إفريقيا الفرنسية ، يؤكد أن الفروع التى أسستها (جمعية العلماء) فى مختلف

مناطق البلاد ، سمحت بنشر نفوذها فى كامل البلاد ، ويقول : إن « هيئتها الإدارية تملك أكبر قوة معنوية فى الجزائر » (Amere p. 95) . وهكذا استطاعت حركة الإصلاح أن تدخل تغيرات عميقة على العقليات ، وهزت أعماق الريف كما هزت الهياكل التقليدية فى المدن .

وبعد أن تهيأت الظروف لخوض المعركة السياسية ضد الاستعمار، استغل ابن باديس وصحبه ، أول فرصة سنحت لمواجهة الإدارة الفرنسية ، عن طريق تأكيد الكيان الوطنى والشخصية العربية الإسلامية ؛ ذلك أن الحكومة الفرنسية أصدرت فى عام ١٩٣٦م مشروع قانون عرف باسم « بلوم - فيوليت » ، و (بلوم) هو رئيس الحكومة الفرنسية آنذاك وكانت يسارية ، تضم الحزب الراديكالى الاشتراكى ، والحزب الاشتراكى والحزب الشيوعى ، و(فيوليت) هو صاحب المشروع ، وكان قد سبق له أن عمل بالجزائر واليًا عامًّا ، وقد سماه المعمرون آنئذ (فيوليت العربى) ؛ لأنه لم يكن يتبنى جميع مواقفهم ، أما بعد إعلانه عن المشروع المذكور فقد أطلقوا (فيوليت الطاعون) . وهذا المشروع يمنح الجنسية الفرنسية لعدد محدود من الجزائريين تصبح لهم الحقوق نفسها التى للفرنسيين ، ومع ذلك رفضه المعمرون ، وعدوه خطرًا عليهم . هنا تدخل رجال الإصلاح ، ليطالبوا بضرورة احتفاظ الجزائريين الذين أعطوا ذلك الحق ، بذاتيتهم الإسلامية أى بقانون الأحوال الشخصية . وكانت معركة من أعنف المعارك .

ولما كانت المزايا المترتبة على الجنسية الفرنسية ، مع التخلى عن الأحوال الشخصية كثيرة ، فلم تتردد لجنة الفتوى التابعة لجمعية العلماء أن تصدر فتوى تحكم على كل من يعتنق الجنسية الفرنسية ، ويقبل بتخليه عن قانون الأحوال

الشخصية ، بأنه « مرتد » ، وبذلك تكون حركة الإصلاح الدينى قد برهنت على حرصها على المزاوجة بين العصر والحداثة من جهة ، والتمسك بالإسلام وتراثه الحضارى من جهة أخرى .

وتتأكد أهمية هذه النقطة فى ضوء قراءة (أرنولد توينبى) للتاريخ ، فهو عند تحليله لمسار التاريخ يرى أن للأحداث التاريخية جانبين : ماديًا وروحيًا ، وأن المبدأ الأساسى لحركة التاريخ هو مبدأ التحدى والاستجابة ؛ فالأمم تواجه كثيرًا من التحديات ، والأمم الحية هى التى تتولد لديها الرغبة فى المقاومة وصولًا إلى بلورة الاستجابة الملائمة للتحدى الذى تواجهه ، وعندما تنجح فى ذلك ، تتوالى التحديات والاستجابات الناجحة ، فترتقى . وقوام الارتقاء الحقيقى وفقًا له هو ما أطلق عليه التسامى ؛ ويعنى به التغلب على الحواجز المادية . وهو يرى أن هذه العملية تعمل على إطلاق طاقات المجتمع من عقالها لتستجيب للتحديات التى تبدو بعد ذلك ، داخل النفس أكثر منها جارجها ، ومن ثم تكون الاستجابة للتحدى روحانية الطابع ، أكثر منها مادية (فؤاد محمد شبل - دراسة للتاريخ لأرنولد توينبى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٨ - ١٣) .

وقبل أن أسترسل فى الحديث ، أسوق جزءا من الحوار بينى وبين صحافى هولندى حضر إلى الجزائر ليغطى الاحتفالات التى نظمت بمناسبة الذكرى العاشرة للاستقلال ، غام ١٩٧٢م ، بعد أن جال فى عدة مناطق ، وزار عددًا من المعامل والمؤسسات الاقتصادية ، اتصلت به وسألته عن انطباعاته ، قال : أخشى إن أنا صارحتك بذكر الانطباع الأساسى الذى تشكل لدى أن تغضب .

قلت : قل ، لا تحكم على رد فعلى قبل أن تخبرنى بانطباعك .

قال : أعجبت إعجابًا شديدًا ببلدكم وإنجازاته ، وقد خطر ببالى أن أشبه الجزائر فى جدية رجالها وتعبئة شبابها وطموح مشاريعها بإسرائيل، لقد استطاعت الجزائر أن تعيش عصرها .

قلت : معك حق ، انطباعك يدعو للغضب ، لكن ليس كما تتصور ؛ لأن أخشى ما أخشاه أن يكون انطباعك خاطئًا ، وأن لا نستمر على مثل هذه الجدية ، ولا نكمل المشوار ، وأن يأتى يوم نخرج فيه من عصرنا .

بعد ذلك بسنتين ، عام ١٩٧٤م صدر عن المجلس الاقتصادى والاجتماعى للأمم المتحدة تقرير جاء فيه أن هناك بلدين عربيين ، سوف يصلان إلى مستوى بعض بلدان أوربا الجنوبية ، خلال سبع أو عشر سنوات ، وهما العراق والجزائر ... ثم كان ما نعرف وتعرفون ، فما هو تفسير ذلك ؟

ليس ممكنا استعراض كل العوامل التى أدت إلى عدد من ألوان السقوط العربى ، على نحو ما جعل قطاعات واسعة من الشباب بصفة خاصة تتساءل عن جدوى الكفاح الاستقلالى . أذكر بالمناسبة حوارًا سمعته عام ١٩٩٢م ، دار بين سائحة فلسطينية جاءت للقاهرة وسائحة جزائرية . كانت الفلسطينية من عرب ٤٨ كما يقال ، أى ليست من الضفة الغربية ، وراحت تشكو ظلم الدولة العبرية واضطهادها للعرب . فقالت لها الجزائرية : أنت لن تدركى ما أنت فيه من سعادة إلا عندما تشاهدين معاملة الدولة الفلسطينية لك ، عندما تقوم هذه ! ساقت ذلك فى نغمة يصعب تحديد نسبة السخرية فيها من الجد ، لكن هذا التعليق ، وإن كان مجرد كاريكاتير ساخر ، يعبر عن حالة الإحباط التى توجد فى أكثر من بلد .

ولا يخفى أن التحول الذى يعبر عنه مثل هذا الإحباط يكشف عن تطور

سلبى ، من اليقين الذى صاحب المد الوطنى ، إلى شك فى طريقه لأن يصبح نقيض اليقين . مثل هذا التحول لم يكن ممكنًا دون تراكمات تمتد على عدة سنوات . فظواهر الوضع الاجتماعى الخانق ، والمستوى المعيشى المتدهور ، والبؤس الثقافى ، والأزمة الأخلاقية التى نلحظها هنا وهناك، وليست إلا نتائج لعوامل أخرى كثيرة ، إذا كان يصعب تحديدها كلها ، فيمكن أن نجملها فيما يأتى :

أولًا : سقوط عدد من الزعامات والأقنعة ، والمسلمات والأيديولوچيات ، وعلى الرغم من أن نذر تلك الألوان من السقوط برزت منذ السبعينيات ، فإن تعود النخب المثقفة ، وأصحاب القرار على اليقين الكسول ، قد حجب عن هؤلاء وأولئك ضرورة البحث عن مواطن العلة. فقد ظل الحكام منساقين إلى سياسة قائمة على « الإرادية » التى تصور لهم أنه يكفى أن ينعقد العزم على تنفيذ خطة ما ؛ لكى تتحقق هذه الخطة ، حتى وإن بناها بعيدًا عن تحليل واقع الناس ، وواقع الميدان . ويزيد فى تعميم التعمية أن هناك حاشيات تحيط بأصحاب القرار ، تقدم لهم إحصاءات تبدو فى صورة يقين يطغى على الشك والطعن ، فى حين أنه ليس أسهل من رصف أرقام ، وصياغة إحصاءات عندما تنعدم الآليات الموضوعية لرصد الوقائع ، خصوصًا فى غياب ممارسة ديمقراطية تمكن من البحث عن مقاربة الحقيقة .

ثانيًا : ما أفرزته تلك الأوضاع من تفاوت ثقافى واقتصادى واجتماعى وتسطيح ثقافى ، يتزامن مع تخصصات تقنية عالية المستوى وخالية من أى مضمون ثقافى فكرى . فقد أحدث ذلك صدمة قوية لدى أجيال نشأت منذ

المهد على أغانى النصر ، وأهازيج اليقين ، فراحت تلهث وراء سلسبيل الرفاه الذى تبين أنه مجرد سراب بقيعة .

ثالثًا : التحولات التى عرفها العالم خلال الربع الأخير من القرن الحالى ، أدت إلى فرض اقتصاد السوق فى كل مكان . وكان من المفترض أن يصاحب ذلك ضوابط معقولة ، وقواعد أخلاقية ، نظرًا لارتباط الغرب تقليديًا بفلسفة الهيومانيزم ، حتى تتم الحيلولة دون خطر الانزلاق إلى بروز المال بوصفه قيمة مطلقة ، لكن ذلك لم يتم ، وأصبح المال مطلوبًا لذاته ، وظهر من جديد تقديس العجل الذهبى ، وأصبح النموذج المثالى ليس هو الأستاذ أو المفكر أو الأديب كما كان الشأن سابقًا ، بل أصبح النموذج هو « الجولدن بوى » ورجال المال الجدد ، الذين يعدون الضوابط الأخلاقية قيودًا « أثرية » يجب التخلص منها . وازدهرت المعاهد العليا للتجارة والتسيير المالى ، التى تقلص فيها حيز الاهتمامات الإنسانية والثقافية ، لفائدة الأرقام الجافة ، والإحصاءات الخانقة .

فى هذا السياق يحسن التذكير بما ورد فى نقاش داخل بلاط إمبراطور صينى فى القرن الأول قبل الميلاد : « لا أحد يجهل أن حكم الناس ، وتشجيع الفضائل المدنية يتطلب قبل كل شيء قمع البحث عن الربح المالى الصرف ، كما يتطلب تمجيد الحس الأخلاقى » .

رابعًا : ضاعف من خطورة هذه الظاهرة انعدام الحدود التى كانت موجودة فى مجال انتقال المعلومات ، فتمكن المحرومون من الاطلاع على المستوى المعيشى لدى الموجودين فى أعلى السلم ، وهذا فى الوقت نفسه الذى كانت فيه الفضائيات تعرض نماذج استهلاكية تزيد فى انبهارها وتؤجج لديها التطلع إلى

مزيد من العدالة الاجتماعية ، إن لم تغذ أفكار التسوية المطلقة ، والسلوك الفوضوى الذى يؤدى ربما إلى ما يسمى بالإرهاب . وهكذا نجد أن الصراع بين المحال والممكن ، من أجل تحقيق الخريطة الجديدة للمطالب الاجتماعية ، قد ازداد حدة ، فى الوقت الذى اتسعت فيه الهوة بين الحاكمين والمحكومين ، وبقدر ما كان الحكام يبتعدون تدريجيًا عن الإحساس بالنبض الاجتماعى والسياسى للفئات المحرومة ، كان وعى هذه الفئات بالتفاوت يزداد ، وكانت تطلعاتها تتفاقم تنوعًا وتتضاعف درجات .

خامسًا : الأسلوب الذى فرضته المؤسسات البنكية الدولية فى تعاملها مع البلدان التى تقترض منها . فالشروط التى يطلبها البنك الدولى ، وصندوق النقد الدولى ، لا تحقق التوازن المطلوب بين الميزان المالى ، بل هى تؤدى إلى ازدياد نسبة المستورد فى غياب الشروط اللازمة لزيادة نسبة التصدير ، كما أن تخفيض الاستثمار العمومى ، لا تعوضه دائمًا زيادة فى نسبة الاستثمارات الخاصة التى تفضل القطاعات الطفيلية غير المنتجة .

ثم إن تلك النظرة التكنوقراطية التى لا تهتم بالآثار الاجتماعية المترتبة على تطبيق تلك الشروط ، تؤدى عمليًا إلى تهميش الإرادة الوطنية فى المجال الاقتصادى الاجتماعى ، وهو ما يؤدى إلى أن تفقد الجهات الوطنية مصداقيتها لدى الشعب ؛ لأن ما يهم الجهات الوطنية ، هو رضا صندوق النقد الدولى ؛ أى أن الشرعية الخارجية المستمدة من تقويم المؤسسات البنكية الدولية تطغى على الشرعية الداخلية ، وبذلك يختل التوازن بين هذه الشرعية وتلك ، لأن حاجة الحكام إلى موارد مالية خارجية تجعلهم يذعنون لمطالب التمويل الخارجى ، على

حساب المطالب الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين. من هنا نجد أن عددًا من حكام العالم الثالث، وفيه العالم العربى، يهتمون بمظاهر الوجاهة الخارجية المتولدة عن نظرة الممولين الدوليين، أكثر من حرصهم على الشرعية الداخلية التى تجعلهم منسجمين مع شعوبهم.

ونضيف إلى ذلك تطور ظواهر سلبية جديدة مثل الرشوة والفساد، تلك المظاهر أصبحت مبعث اعتزاز وصار يتبجح بها كثيرون، وقد انتشرت بين سمع وبصر أجيال نشأت على خطاب العدل والمساواة والطهر الثورى والنقاء الأخلاقى.

فما هو تفسير هذا الانتشار السرطانى لهذه الظاهرة وهذا التكاثر الأميبى لتلك الأمراض؟ يواجه كل بلد حديث العهد بالاستقلال معضلة التوفيق بين حدود الأمل وحدود الممكن؛ أى معضلة صياغة مشروع يتكفل بتحقيق آمال فئات واسعة كانت هى وقود الثورة التى أفضت إلى التحرر والاستقلال، فى إطار الحدود التى يسمح بها الواقع؛ أى بالمعنى الواسع للواقع الذى يشمل الإمكانات المادية والبنيات العقلية والهياكل الاقتصادية والثقافية الموروثة.

ويزداد المشكل تعقيدًا بفعل عوامل أخرى؛ مثل الصراع على السلطة، وتضخيم دور التنظير التجريدى، الذى يتجاهل الواقع، وقوة الجاذبية التى تشد إلى الموروث عن العهد الاستعمارى وعن العهد العثمانى، هذا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من خطاب «إرادى» يتصور مجرد «لفظه» بداية خطة وعمل، ودعوته إلى التغيير مستجابة بسرعة، إلى آخر نقاط الضعف المتصلة بكيفيات الانتقال من الثورة إلى السلطة، ومن التهييج والإثارة إلى الحكم والتسيير. وفى

ظل الصراع على السلطة يحاول كل طرف أن يبحث عن شرعيته فى ماضى الكفاح ضد الاستعمار؛ وهو ما يفضى إلى سعى كل إلى احتكار الوطنية واحتكار التاريخ؛ وهو ما يؤدى عمليًا إلى إنكار الأطراف الأخرى، وتهميش دورها فى تهيئة المناخ الملائم للثورة، إن لم يؤد إلى تخوين هذا الطرف أو ذاك. ويضاف إلى ذلك كله مشكلات مرتبطة ببعض تجارب الخارج التى كان الشباب الثائر معجبًا بها؛ فهذا الإعجاب يسارع بعض مثقفى العالم المتقدم إلى استغلاله، فيعرضون خبراتهم النظرية، ومهاراتهم التنظيرية لبناء مشاريع تحول الأحلام التى لم يمكنهم تحقيقها فى بلدهم إلى برامج، دون أن يسبق ذلك مسح دقيق للواقع الفكرى والبنيوىّ والاجتماعى والسيكولوچى للبلد المرشح لأن يكون ميدانًا للتجربة.

ومما يزيد فى تيسير هذا اللقاء بين تلك النخب علاقات ربطت بين هؤلاء وأولئك منذ مرحلة الكفاح الوطنى، فكثيرًا ما يحدث أن تستعمل نخب البلد المكافح من أجل الاستقلال، لغة مستوحاة من تقاليد البلد المستعمر وثقافته، من أجل إقناع جماهير هذا الأخير بعدالة القضية؛ وتعبئة الرأى العام فيه لتأييد الاستقلال، ومع مرور الوقت تكتسى تلك اللغة المستعملة لضرورات الدعاية، طابع الأصالة؛ إذ تبدو كما لو أنها نبعت فعلًا وأصالة من البلد المكافح، فيحدث نوع من التلاقى والتحالف، يقوم فى الواقع على نوع من سوء التفاهم. وفى الوقت الذى يتصور فيه ثائر الأمس أنه يسعى إلى تحويل مشروعه إلى واقع، نجد فى موازاته عناصر من أبناء جلدته، تمرست على العمل الإدارى فى العهد الاستعمارى، مدركة لنقاط الضعف التى تمثل ثغرات تسمح بممارسة أقدم هواية عند الانتهازيين؛ وهى التعرف على أنجع المسالك المؤدية إلى أكل « الكتف »

دون أن تتحمل أدنى مسئولية . وبذلك تتضافر خبرة الانتهازى مع « لا تجربة » ثائر الأمس لتشكل فى الواقع حلفًا غير مرئى ، يجر الثائر لينحرف إلى خط الانتهازى دون أن يكون واعيًا بانحرافه ؛ وذلك يعنى أن بذور الانحراف تكون قد انغرست فى زمن مبكر من عمر الاستقلال ، فتظل كامنة فى التربة إلى حين ظهور عوامل أخرى تساعد البذرة – الجرثومة – على أن تبرز فى مناخ أكثر ملاءمة .

وانطلاقًا من هذه الملاحظات يمكن أن نفهم كيفيات بروز الميكانيزمات التى تسمح بظهور الفساد وتطوره ، ولا خلاف على أن أحد العوامل التى تساعد على ذلك هو إقامة احتكارات صناعية وتجارية ، تنعدم فيها الحدود بين احتكار الدولة واحتكار المؤسسة . ولا شك أن تطور ظاهرة الفساد هذه ، يوجد أرضية لا تساعد على تحقيق خصخصة ناجعة .

ومن الجدير بالذكر عند الكلام عن الاحتكار أن نشير إلى النقاش الذى دار خلال القرن الأول قبل الميلاد بين مجموعة من المثقفين وعدد من أعوان الدولة فى بلاط إمبراطور الصين ، وكان النقاش يدور حول جدوى احتكار الدولة لتجارة الحديد والملح . وقد سجل النقاش فى محضر ترجم ملخص عنه إلى الإنكليزية فى العشرينيات ، وترجم إلى الفرنسية عام ١٩٧٨م .

وفى هذا النقاش شرّح أحد المثقفين تشريحًا دقيقًا ميكانيزم الفساد المرتبط بالاحتكار عندما قال : « إن الدولة إذ تحتكر الملح والحديد ، وتنظم إنتاج الكحول ، وتسيطر على نظام الأسعار ، تكون قد سعت إلى تحقيق أرباح مثل أى تاجر خاص ، فتقوّض بذلك الاستقامة القديمة ، وتفتح المجال للجشع على نطاق واسع ، وبذلك ينخفض عدد الذين ينصرفون إلى القيام بالمهام الأساسية ، فى

الوقت الذى يتضاعف فيه عدد الذين ينصرفون إلى الأنشطة الثانوية ، علمًا بأن الثانوى يضر بالأساسى ، وأن الانحراف يكون متناسبًا مع تزايد أهمية القطاعات الطفيلية ... إننا نريد أن يوضع حد لاحتكار تجارة الحديد والملح ... » .

ثم يستشهد بالقرار الذى كان قد اتخذه الإمبراطور « كاو » عام ٢٢٢٥ قبل الميلاد ليعقب عليه بما يأتى :

« إن الإمبراطور « كاو » إذ قرر ذلك فلكى يسعى لتحريم روح الربح ، ويصون بساطة الخلق التقليدى » ، ثم يضيف « ولقد قيل حقًا إن الحكام عندما يسعون إلى تكديس الثروة ، فإن ضباطهم الكبار يكونون متهمين ويصابون بالجشع ، وآنذاك يصبح الموظفون طماعين ، وتصبح السرقة مشروعة فى نظر الشعب . إن فتح الباب أمام روح الربح يعنى حث الشعب على الجريمة » . وبقدر ما يربط الناطق باسم الحكومة بين الازدهار والموقع الجغرافى ، يربطه المثقفون بالعمل والتوفير والكد . إن هذا الحوار الممتع يمثل فى بعض جوانبه دفاع ممثلى النظام عن احتكار الدولة باسم إيديولوچية تؤدى إلى تهميش العمل واحتقار الجهد ، وتعطى الأولوية للمهارة التجارية ، على الإبداع والعمل المنتج .

على أنه لكى تكتمل الصورة لا بد من التذكير بالفراغ الناجم عن تغيب دور النقابات والقوى الأخرى التى أصبحت رديفًا للنظام ، وبذلك انعدم شرط أساسى من شروط التوازن ؛ إذ تخلت النقابة عن دورها كمحاور كفء يتحدث من موقع معارض ، وهو يخدم النظام والمجتمع فى الواقع ، وتسبب هذا الفراغ فى تحريف النقاش من حوار إيجابى بين قطبين يتحقق من خلالهما التوازن إلى نوع من تبادل التهم والتشكيك فى النوايا والبحث بأى ثمن عن كسب موقع أو

تعزيزه فى معركة سرعان ما تحولت إلى حرب مواقع ، وبدلًا من أن يبحث كل طرف عن نقاط الالتقاء مع الأطراف الأخرى بما يؤدى إلى إقامة جسور تجمع ، انزلق النقاش إلى حرب كلامية حادة تقلصت معها إمكانات الحوار الجاد وفتحت المجال واسعًا للعنف الكلامى الذى هو مقدمة العنف الدموى .

وبعد ، إن الدرس الذى يمكن استخلاصه من التجربة الجزائرية التى نرجو أن تنجح فى التخلص من الأزمة الحادة التى عرفتها فى السنوات العشر الماضية ، كما نجحت فى مواجهة الاستعمار ، هو أن توظيف التاريخ ، وعد الإسلام جزءًا أساسيًا من مكونات الهوية بالإضافة إلى اللغة العربية ، لم يكن انكفاء على الماضى أو رفضًا للعصر ، بل كان شرط التوجه إلى المستقبل ، بخطوات ثابتة لا تحيد عن سواء السبيل ، ونظرات ثاقبة لا تزيغ عن الحق المبين .

تلك تجربة تحتاج اليوم إلى الإفادة منها :

التوجه إلى المستقبل عبر طريق الحوار المخصب والنقاش السلمى ، بعيدًا عن استعراض العضلات أو التقوى بالسلاح . لقد برهنت الجزائر ، عبر ابن باديس وصحبه على أن الإسلام كان حصنًا صان الشخصية الوطنية ، ووقودًا غذى المقاومة ضد الاستعمار . وقد برهن ابن باديس على أن الإسلام لا يعنى « الدوغما » ، بل هو يرفضها ، فابن باديس يرفض التقليد الجامد ، المتبع بحكم الوراثة دون فهم ، ويسميه الإسلام الوراثى وينعته بأنه « لا فكر فيه ولا نظر » ؛ أى أنه خال من الاجتهاد ويعادى الفكر ، بينما هو يدعو إلى ما يسميه الإسلام الذاتى ، الذى يعنى به الاقتناع الواعى وإعمال العقل داخل الإسلام فيما ليس فيه نص ، وتكييف الفقه وفق حاجيات الناس وضرورات الوقت .

مثل هذا الموقف الذى يحقق المزاوجة بين العقيدة والفكر ، هو الذى يفسر النجاح الذى حققته الحركة التى قادها ابن باديس .

واتخاذ موقف نقيض ، يسقط عمدًا أو دون وعى ، دور الفكر والعقل والاجتهاد ، هو الذى يفسر سطحية بعض الدعوات الدينية التى تمثلت فى اكتساح عدد من الساحات العربية ، كما يفسر ما عرفته من مغامرات وانتكاسات ؛ ذلك لأن شعار « الإسلام هو الحل » ، الذى رفع لمخاطبة العواطف واستغلال سخط المحرومين ، من أجل تحقيق مكسب سياسى لا علاقة له بالعقيدة ، لم يصحبه تقديم مشروع مجتمعى متكامل وواقعى ؛ ومن هنا فجر آمالًا عريضة فى إمكانية حياة أفضل ، تتحقق بمجرد أن يتربع رافعو الشعار على دفة الحكم ، خصوصًا أن هؤلاء يقدمون لتفسير الأوضاع المتردية عوارض يمكن للجماهير فهمها بسهولة ، فى حين أن تلك العوارض ليست إلا نتيجة لأمراض أقدم وأكثر تشعبًا . ومن شأن ذلك أن يولد نوعًا من التصور لعدالة قادمة قريبًا ، تأخذ صورة انتقام كاسح ، يصبح معها الطموح إلى السلطة مشروعًا للتسلط .

إن إطلاق شعار « الإسلام هو الحل » دون مضمون مدروس ، ودون مشاركة من الجميع فى مناقشته بفكر ثاقب وجدل هادئ ، يعنى تأجيج توتر واستعمال نار دون أن تكون هناك ضوابط تسمح باستخدامها لفائدة ثورة واعية لها برنامج ، أو حركة تنويرية لها مشروع . وفى هذه الحالة تشتعل نار تلتهم الأخضر واليابس ، الضار والنافع ، وتتسبب فى ردود فعل لا تقل عنها فوضوية وعدمية ؛ لأن هذه تجد لعملها بعض التبرير ؛ إذ تعد نفسها صاحبة الشرعية ، فتتشابك ألسنة اللهب ، هنا وهناك . تدعى تلك محاربة الطواغيت والظلم ، وتزعم هذه

أنها تحارب الإرهاب ، فيتغذى كل طرف من الآخر بما يؤدى إلى نوع من توازن الرعب ، يتمزق فيه نسيج المجتمع ، وتحترق فيه القيم ، ويتأكد فيه الضياع .

فى حين أن الشريعة تتناول العلاقات بين الناس من خلال (فقه المعاملات) ، وتسهر على إدارة العلاقات بين الناس بعضهم مع بعض ، كما تتناول علاقات المجتمع المسلم مع محيطه القريب والبعيد ، وفى الوقت نفسه تعنى بوضع الصيغة الفضلى لتصرف الدولة فى الثروات الوطنية مع السهر على توزيع عائداتها بأعدل صورة ممكنة .

إن الشريعة لا تملى كيفيات التعامل مع المحيط العلمى المعقد ، ولا تفرض كيفية تحصيل العلوم والتكنولوچيا ، فى وقت أصبحت فيه العلوم تتضاعف مرة كل ست أو ثمانى سنوات ، بعد أن كانت تتضاعف مرة كل ٤٥٠ سنة .

أيها الجمع الكريم :

ختامًا ، أود أن ألفت النظر إلى أن مشروع إقامة دولة فى زماننا ، ينبغى أن يتضمن عدة عوامل ، يأتى فى مقدمتها : تنظيم الإمكانات الشعبية حتى تصبح قوى متجانسة يدعم بعضها بعضًا ، بدلا من أن يلغى بعضها بعضا ، واستثمار موارد يحسن التصرف فيها حتى تفرز قوة مضافة تزيد فى قيمتها ، مع مراعاة العدل فى التوزيع والإنصاف فى المكافأة ، فى إطار نظم وآليات تسيير تسبغ على الحكم شرعية غير قابلة للنقاش ، بما يتوافر فيه من عناصر الانسجام والوئام والتكامل ، وبما يضمن توفير شروط ازدهار الفكر النير .

ولا يخفى أن استمرار الدولة بهذا المفهوم ، يتوقف على إجراء قراءة جيدة فى الماضى ، واستقراء دقيق للحاضر ، واستكناه مبصر واع للمستقبل ، تجنبا للتحجر

القاتل ، وللرضى عن النفس الذى يقتل الإبداع ؛ إذ يرفض النقد والتجديد .

وذلك يتطلب إقامة منظومة تربوية على التكيف مع المستجدات ، وتأهيل الخريجين لمختلف الاختصاصات ، مع إقامة نظام قضائى يخدم الجميع ، ويحاسب الكل ، لفائدة المجموع ، بفعل ما يتوافر فيه من ضوابط تحول دون أن يتحول إلى آلة قمع .

بهذا المفهوم للدولة يتحقق الانسجام والتوازن بين الماضى والمستقبل ، عبر مركب حاضر ينتج إبداعات ، بما يحققه من التقاء ماهر وذكى ، بين قدرات الذات الوطنية وما يمكن الاستعانة به من روافد التجارب الخارجية ؛ ذلك لأنه لا يمكن الاستغناء عن الخارج ، بشرط أن نستلهم النحلة بدلًا من القرد ، فالقرد إذ يحاكى لا يضيف جديدًا ، وهو إذ يثير إعجاب الأطفال فلأنه يتقن التقليد ، أما النحلة فهى تجمع خلاصات الأزهار ، تمتصها ثم تتمثلها ثم تحولها إلى إنتاج جديد فيه شفاء للناس .

والخلاصة ، أن توازن أى مجتمع إنما يتوقف على الدراسة المعمقة للتاريخ والحاضر ، ومعالجة واعية ومسئولة للأسئلة الكبرى التى تطرحها أصناف الشك التى تعززها الدراسة المعمقة ، توصلًا إلى استخراج عبر ، تساعد على فهم المشكلات ذات الصلة ، ومن ثم تعين على صياغة موفقة تفضى هى الأخرى إلى تشكيل القرار الملائم فى إطار سياسة تقترح ولا تملى ، توجه ولا تفرض ، تقنع ولا تقمع .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد الميلى

جامعة الدول العربية
معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DE RECHERCHES ET D'ETUDES ARABES
معهد البحوث والدراسات العربية
معهد البحوث والدراسات العربية